ملخص البحث

عنوانــه : أنـماط الحجّــة عنـد ابـن سـنان الخفاجي في كتاب سر الفصاحة (قراءة نقدية).

سبب اختيـاره : نـابع من خطـاب ابـن سنان الخفـاجي إذ أن النـاظر فيـه والمتأمـل يجـد أنـه يقوم على الجدل والمحاورة ، وطرح الأسئلة.

أهميتـه : تكمن فـي كونـه نظرًا فـي خطـاب ابن سنان الخفاجي في كتابه سر الفصاحة ، إذ أنه كتاب يضم مسائلاً بلاغيّة ، وقضايا نقديّة ، دار علـى بعضـها خـلاف بـين العلمـاء . وهَمُّ البحـث التبصـر فـي الخطـاب الحجـاجي لابـن سنان ، وبيان مواضعها من كتابه .

مشـكلته : بيـان أنمـاط الحجـة عـن طريـق النظـر فـي الطريقـة التـي عـالج ابـن سـنان مـن خلالهـا المسـائل البلاغيّـة والقضـايا النقديّـة ؛ ليثبت وجـه نظره ، ويقنـع بهـا المتلقي ، وينفـى رأي مخالِفه .

أسئلته : ما أنماط الحجة الواردة في كتاب سر الفصـاحة لابـن سـنان الخفـاجي مـن خـلال معالجتـه للمسـائل البلاغيّـة والقضـايا النقديّـة؟ كيف يظهر للمتلقي التفكير البلاغيّ لابن سنان الخفاجي في كتابه سر الفصاحة ؟ ما المصادر التـي شكلت الخطـاب الحجـاجي لابـن سـنان ، وسـاهمت فـي ظهـور أنمـاط الحجـة لديـه ؟ مـا المسـائل البلاغيّـة التـي أحـتج لهـا ابـن سـنان الخفاجي ؟

فرضـياته : من أهمها ، أن نشأة ابن سنان وتأثره بالمذاهب الفلسفية والعقدية ونمط الثقافة السائد في عصره رمت جميعها بسهم في تشكيل مصـادر الحجـة لديـه . أن نمـط الحجـة فـي خطاب ابن سنان يتنوع بنتوع المسألة المختلَف فيها ، ودرجة مخالفة خصمه ، وتشبثه برأيه.

أهدافـه : بيـان التفكيـر البلاغـيّ عنـد ابـن سنان الخفـاجي ، وبيـان مصـادر الحجـة التـي شكلت الخطاب الحجاجي ، وبيان أنماط الحجة من خـلال معالجته للمسائل التـي يحتوي عليها كتابه سر الفصاحة .

منهجـه: اتبـع البحـث فـي حـل مشـكلته ، والإجابـة عن أسئلته ومعالجـة فرضـياته المنهج الاستدلالي.

هيكلــه : مقدمـة تشـتمل عناصـر البحـث ، وتمهيـد فيـه مفهـوم الحُجـة وصِـلته بـالتراث البلاغـيّ ، ومبحثـان: المبحـث الأول: التفكيـر البلاغي عند ابن سنان ومصادر الحجة، وفيه مطلبـان : الأول ، التفكيـر البلاغـي عنـد ابـن سنان. والثاني، مصادر الحجة عند ابن سنان. المبحث الثاني : أنماط الحجة عند ابن سنان وآليتها البلاغية. وفيـه أربعـة مطالـب :الأول ، الحجـة البرهانيـة. والثـاني ، الحجـة الخطابيـة . والثالـث ، الحجـة الجدليـة . والرابـع، الحجـة الشـعرية ، والخـامس : الحجـة الباطلـة . ثـم الخاتمة ، وقائمة المصادر والمراجع .

أهم نتائجـه: إن كتاب سر الفصاحة يشكل مادة علمية زاخرة بأساليب الاحتجاج العقلي ، وموطن عامر بأنماط الحجج المتنوعة ، وآلياته المتعـددة . وإن معالجـة المسـائل البلاغيـة بأسـاليب الاحتجـاج العقلـي يـدل علـى العلاقـة الرابط بين علم البلاغـة العربـي وبـين الحجـاج بوصـفه طريقـة علميـة فـي تأصـيل العلـوم وتوصيل الأفكار وإقناع المتلقي بها .

Research Summary
Its title: Patterns of Hijjah according to Ibn Sinan Al-Khafaji in the book The Secret of Eloquence ((Critical Reading.
The reason for choosing it: It stems from the speech of Ibn Sinan Al-Khafaji, as the one who looks into it and meditates finds that it is based on argument, debate, and questioning.
Its importance: It lies in the fact that it is given in the discourse of Ibn Sinan al-Khafaji in his book The Secret of Eloquence, as it is a book that includes rhetorical and critical issues, some of which were disputed between scholars. The concern of research is insight into the discourse of Al-Hajjaji by Ibn Sinan, and its positions in his book.
His problem: showing the patterns of the argument by looking at the way Ibn Sinan dealt with rhetorical and critical issues. To prove his point of view, to convince the recipient of it, and to deny the opinion of his opponent.
His questions: What are the types of argument contained in the book The Secret of Eloquence by Ibn Sinan Al-Khafaji through his treatment of rhetorical and critical issues? How does the rhetorical thinking of Ibn Sinan al-Khafaji appear to the recipient in his book The Secret of Eloquence? What are the sources that formed the Hajji discourse of Ibn Sinan, and contributed to the emergence of the patterns of his argument? What are the rhetorical issues that Ibn Sinan ?al-Khafaji argued for
His hypotheses: One of the most important ones is that Ibn Sinan's upbringing and his influence on the philosophical and dogmatic doctrines and the culture pattern prevalent in his era all contributed to forming the sources of his argument. The pattern of the argument in Ibn Sinan's discourse varies according to the variety of the issue in which it is disputed, the degree of contradiction by his opponent, and his adherence to his opinion.
Its objectives are: To clarify the rhetorical thinking of Ibn Sinan al-Khafaji, to explain the sources of the argument that formed the Hajji discourse, and to explain the types of argument through his treatment of the issues contained in his book The Secret of eloquence.
His method: The research in solving his problem, answering his questions and treating his hypotheses, followed the inferential approach.
Its structure: An introduction that includes the elements of the research, an introduction to the concept of the argument and its link to the rhetorical heritage, and two topics: The first topic: Rhetorical thinking according to Ibn Sinan and the sources of the argument, and it has two requirements: the first, rhetorical thinking according to Ibn Sinan. And the second, the sources of the argument according to Ibn Sinan. The second topic: Types of argument according to Ibn Sinan and

in methods of mental protest, and it is home to a full range of types of arguments, and its multiple mechanisms. The treatment of rhetorical issues with methods of mental protest indicates the link between the science of Arabic rhetoric and the pilgrims as a scientific method in establishing science, communicating ideas and convincing the recipient of them

.

its rhetorical mechanism. And there are four demands: the first is the proof. And the second, the rhetorical argument. And third, the argumentative argument. And the fourth, the poetic argument, and the fifth: the false argument. Then the conclusion, and the list of sources .and references

Its most important results: The book The Secret of Eloquence constitutes a scientific material rich

المقدمة

الحمـد لله منـزل القـرآن حجـةً علـى عبـاده ، والصـلاة والسـلام علـى مـن بلّـغ الحـق ، وأقنـع بـه مَنْ اهتـدى وآمـن ، وأفحـم بـه مـن كفـر وعـارض ، وعلـى آلـه وصـحبه أجميعن ، وبعد

فـإن البلاغـة العربيـة ارتبطـت بالإقنـاع ، إذ تُعّـرف بتبليـغ المعنـى قلـب السـامع ، فكـل وسـيلة يسـتعملها منشـئ الكـلام شـاعرًا أو خطيبـا لتبليـغ مقصـده للمتلقـي المـَعْنيّ بالكلام تدخل في حيز البلاغة .

والتـراث البلاغـي حافـل بالوسـائل التـي تحقـق الإقنـاع عـن طريـق المقامـات والقـرائن الحاليّـة كمـا جـاء عنـد الجـاحظ فـي فكـرة السـياق والمقـام ، والأسـاليب التـي تعتمـد علـى التركيـب والإنشـاء والـذي عُـرِف عنـد الجرجـاني بنظريـة الـنظم ، ومنهـا الطـرق المنطقيـة أو التخييلـة والشـعرية كمـا جـاء عنـد السـكاكي وحـازم القرطـاجني . وكانـت جهـودهم البحثيـة منصّـبة فـي الكـلام العـالي والنصـوص الإبداعيـة . واتجهـت الدراسـات البلاغيـة المعاصـرة فـي النظـر إلـى خطابـات هـؤلاء الأعـلام الأفـذاذ الـذين عمـدوا فـي خطابـاتهم إلـى إقنـاع المتلقـي حـال ناقشـهم للمسـائل العلميـة وتحليـل جزئيتهـا ، عـن طريـق النظـر فـي أسـلوب حجـاجهم ، وأنماطه ، وآلياته .

وعلـى غـرار تلـك الدراسـات جـاء هـذا البحـث نـاظراً لعَلَـمٍ مـن علمـاء القـرن الخـامس الهجـري الـذي كـان زاهـرًا بالدراسـات البلاغيـة والنقدية .

فكان **<u>عنوان البحث :</u>**

(أنماط الحجّـة عند ابن سنان الخفاجي في كتاب سر الفصاحة " قراءة نقدية ")

سبب اختيار الموضوع :

سبب اختيار الموضوع نابع من خطاب ابن سنان الخفاجي إذ أن الناظر فيه والمتأمل يجد أن يقوم على الجدل " وأسلوبه في الجدل أسلوب قوي من أساليب المتكلمين " [١] ، ويقوم خطابه على المحاورة والنقاش ، وطرح الأسئلة ، وقد يكون هو السائل وهو المجيب ، فكان محفزاً للبحث عن الحجة وأنماطها .

كما أن بعض عناوين الفصول الواردة في كتاب سر الفصاحة تدل على إمكانية استعمال ابن سنان في معالجة المسائل لبعض أساليب الاحتجاج ، وبالتالي ظهور أنماط متعددة من الحجج ، ومثال ذلك : (الاستدلال بالتعليل) ، (الاستدلال بالتمثيل) ، (فصل في ذكر الأقوال الفاسدة في التفضيل بين المتقدمين والمتأخرين).

أهمية البحث :

تكمن أهمية البحث في كونه نظرًا في خطاب ابن سنان الخفاجي في كتابه سر الفصاحة ، إذ أنه كتاب يضم مسائلاً بلاغية ، وقضايا نقدية ، دار على بعضها خلاف بين العلماء ، وهَمُّ البحث التبصر في الخطاب الحجاجي لابن سنان .

مشكلة البحث وأسئلته :

تتمثل مشكلة البحث في بيان أنماط الحجة من خلال النظر في الطريقة التي عالج بها ابن سنان المسائل البلاغية والقضايا النقدية ؛ ليثبت وجهة نظره ، ويقنع بها المتلقي ، وينفى رأي مخالِفه . وبناء على ذلك كان سؤال البحث الرئيس : ما أنماط الحجة الواردة في كتاب سر الفصاحة لابن سنان الخفاجي من خلال معالجته للمسائل البلاغية والقضايا النقدية؟

ومنه انطلقت الأسئلة الفرعية التالية :

- كيف يظهر للمتلقي التفكير البلاغي لابن سنان الخفاجي في كتابه سر الفصاحة ؟
- ما المصادر التي شكلت الخطاب الحجاجي لابن سنان ، وساهمت في ظهور أنماط الحجة لديه ؟
- ما المسائل البلاغية التي احتج لها ابن سنان الخفاجي ؟

فرضيات البحث :

من خلال المعلومات الأولية التي كونت مشكلة البحث نشأت الفرضيات التالية ، فالبحث يفترض :

- أن التفكير البلاغي لدى ابن سنان يتجلي من خلال حديثه عن مفهوم الفصاحة ، والوجوه الفارقة بينها وبين البلاغة ، ومن خلال مناقشة المفهومين – الفصاحة والبلاغة – يبني نظره في المسائل البلاغية التي يتلاقى فيها رأيه ويفترق مع مَنْ سبقه من علماء القرن

(١) بنو خفاجة وتاريخهم السياسي والأدبي. محمد عبد المنعم خفاجي . (٢ : ٤١) . الطبعة الأولى ، المطبعة الفاروقية الحديثة ١٣٦٩ هـ.

الثالث والرابع الهجري ، ومَنْ عاصره من علماء القرن الخامس الهجري .

- أن نشأة ابن سنان ، وتأثره بالمذاهب الفلسفية والعقدية ، ونمط الثقافة السائد في عصره رمت جميعها بسهم في تشكيل مصادر الحجة لديه .
- أن نمط الحجة في خطاب ابن سنان يتنوع بنتوع المسألة المختلف فيها ، ودرجة مخالفة خصمه ، وتشبثه برأيه .

أهداف البحث :

- بيان التفكير البلاغي عند ابن سنان الخفاجي .
- بيان مصادر الحجة التي شكلت الخطاب الحجاجي لابن سنان الخفاجي .
- بيان أنماط الحجة من خلال معالجة ابن سنان للمسائل التي يحتوي عليها كتابه سر الفصاحة .

منهج البحث :

اتبع البحث في حل مشكلته ، والإجابة عن أسئلته ، ومعالجة فرضياته المنهج الاستدلالي الذي يستند إلى مسلمات أو نظريات يستنبط منها ما ينطبق على الجزء المبحوث. حيث تم النظر في خطاب ابن سنان الخفاجي من حيث صياغة المسألة المحتج لها ، ومحاورة المعارض لرأيه ، وخلوصه إلى النتيجة التي أقنع بها خصمه .

الدراسات السابقة :

ولم تعثر الباحثة على **دراسات سابقة** تناولت موضوع البحث إلاّ دراسة واحدة بعنوان : (ابن سنان الخفاجي وجهوده البلاغية والنقدية من خلال كتابه سر الفصاحة) للباحثة : دريه ياسين ، وهي رسالة مقدمة لنيل درجة الدكتوراه في جامعة أم درمان – السودان عام ١٤٣٠هـ

وكما يظهر من عنوان الرسالة أن اهتمام البحث كان منصبًا على الجهود البلاغية في كتاب سر الفصاحة ، فلم تتطرق الباحثة لمجال هذا البحث الذي كان ينطلق من الأسلوب الجدلي لابن سنان ليبحث عن أنماط الحجة بين تضاعيف سر الفصاحة .

خطة البحث :

قام البحث على مقدمة ، وتمهيد ، ومبحثين ، وخاتمة . وتم بناء خطته على الوجه الآتي :

- مقدمة . تشتمل على عنوان البحث وأدبياته .
- تمهيد . مفهوم الحُجة وصِلته بالتراث البلاغيّ
- المبحث الأول : التفكير البلاغي عند ابن سنان ومصادر الحجة

وفيه مطلبان :

المطلب الأول : التفكير البلاغي عند ابن سنان

المطلب الثاني: مصادر الحجة عند ابن سنان

- المبحث الثاني : أنماط الحجة عند ابن سنان وآليتها البلاغية

وفيه خمسة مطالب :

المطلب الأول : الحجة البرهانية

المطلب الثاني : الحجة الخطابية

المطلب الثالث : الحجة الجدلية

المطلب الرابع : الحجة الشعرية

المطلب الخامس : الحجة الباطلة

- الخاتمة . مشتملة على نتائج البحث وتوصياته .
- قائمة المصادر والمراجع .

وأسأل الله العلي العظيم التوفيق للحق ، وإصابة الصواب ، ومجافاة الباطل.

تمهيد

مفهوم الحُجة وصِلته بالتراث البلاغيّ

لفظ (حُجة) [١] مفرد ، وجمعه : حُجج ، وحِجاج ، وأحِجّة . مشتق من الجذر اللغوي (حَجَجَ) والذي تدور دلالة على :

القصد ، ومنه حججت فلاناً أي : قصدته ، وأتيت إليه مرة بعد مرة ، ورجلٌ محجوج أي : مقصود، وحججت البيت : قصدته .

الغلبة ، ومنه مَثَل العرب : لجّ فحجّ . ومعناه لَجَّ فغلب مَنْ لاجَّه بحُججه. يقال: حاججته أحاجّه حِجاجاً ومحاجَةً حتى حججته أي : غلبته بالحُجج التي أدليت بها . وفي الحديث: " فحجَّ آدمُ موسى " أَي : غلبه بالحُجة . والحُجة : ما دُفِع به الخصم . وقال الأَزهري: الحُجة : الوجه الذي يكون به الظَّفَرُ عند الخصومة. وهو رجل مِحجاج أَي : جَدِل. والتحاج: التخاصم .

---

(١) ما كُتِب عن المدلول اللغوي للفظ (حجة) رجعت فيه الباحثة إلى : لسان العرب . ابن منظور . تحقيق :عبد الله الكبير وآخرون (المجلد الثاني) (ص: ٧٧٨ – ٧٨١) . دار المعارف (د.ط) ، (د. ت) . ومعجم مقاييس اللغة . أحمد بن فارس . تحقيق : عبد السلام هارون . (٢ : ٢٩ – ٣١) ، دار الفكر . (د.ط) ، (د. ت) . والمعجم الاشتقاقي المؤصل لألفاظ القرآن الكريم . حسن جبل . (ص: ٣٧٦) ، (الطبعة الأولى) مكتبة الآداب ٢٠١٠م.

النكـــوص ، ومنـــه قـــول العـــرب : حَمَلـــوا علينـــا ثـــمَّ حَجْحَجُـــوا. أي: تراجعـــوا ونكصوا.

القيـــاس ، ومنـــه قـــول العـــرب : حججتهـــا قِســـتُها، وحَجَجْتُـــهُ حَجّـــاً، فهـــو حَجِـــيجٌ: إذا سَـــــبَرْتَ شَـــــجَّتَه بالمِيـــــل لِتُعالِجَـــــه. والمِحْجاج: المِسْبار.

القطـــع ، ومنـــه قـــول العـــرب : حَـــجَّ العظـــمَ يَحُجُّـــهُ حَجّـــاً: قَطَعَـــهُ مـــن الجُـــرْح واستخرجه.

الإحاطـــة ، مـــأخوذ مـــن الحِجـــاج وهـــو : العظْم المستدير حَولَ العَين .

ويـرتبط مفهـوم الحِجـاج اللغـوي بـالمفهوم الاصـــطلاحي عنـــد البلاغيـــين والنقـــاد فـــي التـــراث العربـــي وخاصـــة فـــي عصـــر تـــدوين العلـــوم " فقـــد مُرّنـــوا علـــى الجـــدال ، ومكايلـــة الألفـــاظ ، وموازنـــة المعـــاني ، وعرضـــها بخفيـــات حـــدودها ودقائقهـــا ، والحـــوار فيهـــا والجـــدال ، ومحاولـــة إقنـــاع الخصـــوم وإسكاتهم " [1] وقـد جـاء فـي البيـان والتبيـين أن مـــن البلاغـــة " البصـــر بالحجّـــة ، والمعرفـــة بمواضـــع الفرصـــة ... بـــأن تـــدع الإفصـــاح بهـــا إلـــى الكنايـــة عنهـــا ، إذ كـــان الإفصـــاح أوعـــرَ طريقـــة . وربمـــا كـــان الإضـــراب عنهـــا صـــفحا أبلـــغ فـــي الـــدرك ، وأحق بالظفر" [2] .

فجعـل أحـد أسـاليب الإبانـة عـن المعنـى وهـو الكنايـة طريقًـا لإقامـة الحجـة ، وإثبـات قطعيتها.

وسـئل ابـن المقفـع مـا البلاغـة ؟ فقـال اسـم لمعـانٍ تجـري فـي وجـوه كثيـرة ، وشـرع فـي تعديـدها إلـى أن قـال : " ومنهـا مـا يكـون فـي الاحتجـاج " [3] ، " وقيـل لخالـد بـن صـفوان : مـا البلاغـة ؟ قـال : إصـابة المعنـى ، والقصـد إلـى الحجـة" [4] فمتـى مـا أقـام المـتكلِّم (المـُستدِل) حجتـه كـان بليغـاً، فالبلاغـة إيصـال المعنـى لقلـب السـامع " فتمكِّنـه فـي نفسـه كتمكُّنِـه فـي نفسـك مـع صـــورة مقبولـــة ، ومعـــرض حســـن " [5] فالصـورة المقبولـة والمعـرض الحسـن تشـمل

---

(١) الفن ومذاهبه في النثر العربي . شوقي ضيف . (ص: ١٣٠)، الطبعة العاشرة ، دار المعارف (د.ت) .

(٢) ينظر : البيان والتبيين. أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ . تحقيق عبدالسلام محمد هارون، (١: ٧٧)، (بدون طبعة) مكتبة الخانجي ٢٠٠٣م .

(٣) البيان والتبيين. أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ . تحقيق عبدالسلام محمد هارون، (١: ٩٤) . العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده. أبو علي الحسن بن رشيق القيرواني. تحقيق : محمد محي الدين عبد الحميد. (١: ٢٤٣) . (الطبعة الخامسة) ، دار الجيل ١٤٠١هـ .

(٤) العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده. ابن رشيق القيرواني. (١ : ٢٤٥) .

(٥) الصناعتين . أبو هلال العسكري . تحقيق : علي محمد البجاوي ، ومحمد أبو الفضل إبرهيم . (ص : ١٠) . (الطبعة الأولى) ، دار إحياء الكتب العربية ١٣٧١هـ .

الأساليب العقلية التي تنبه الفكر ، والأساليب البلاغيّة الفنية التي تمتع النفس.

ويقول أبو هلال العسكري في سياق الحديث عن الجهة التي يكون منها بيان وجه إعجاز القرآن الأعلى : " قبيح لعمري بالفقيه المؤتَم به ، والقارئ المهتدي بهديه ، والمتكلم المشار إليه في حُسن مناظرته ، وتمام آلته في مجادلته ، وشدة شكيمته في حجاجة ، وبالعربي الصليب ، والقرشي الصريح ألاّ يعرف إعجاز كتاب الله تعالى إلاّ من الجهة التي يعرفه منها الزنجي والنبطي أو أن يستدل عليه بما استدل به الجاهل الغبي " [١] .

فتضمن نصُه بيانًا عن مصدر من مصادر تعلُّم أساليب الاحتجاج وهو القرآن ، فالنظر في الموضوعات التي احتج لها القرآن والأساليب العقلية والبلاغيّة التي أدّت إلى إقامة الحجة مِن الروافد المهمة لكلِ متعلِّم مُتكلِّم في مناظراته ومجادلاته ومحاوراته .

كما جعل أبو هلال العسكر الاحتجاج عنوانًا لأحد فصول كتابه الصناعتين وقرنه بالاستشهاد ففي الصناعتين " الفصل الحادي والثلاثون في الاحتجاح والاستشهاد ، وهذا الجنس كثير في كلام القدماء والمحدثين ، وهو أحسن ما يُتعاطى من أجناس صنعة الشعر ، ومجراه مجرى التذييل لتوليد المعنى ، وهو أن تأتي بمعنى ، ثم تؤكده بمعنى آخر يجري مجرى الاستشهاد على الأول ، والحجة على صحته " [٢] .

وكانت صلة البلاغة بأعمال العقل حاضرة في تفسير معنى البلاغة في التراث ووقوعها وصفًا للكلام والمتكلم ، فقال أبو هلال العسكري عن قول الله تعالى : ﴿حِكْمَةٌ بَٰلِغَةٌ﴾[القمر:٥] " فجعل البلاغة من صفة الحكمة " [٣]. والحكمة صفة عقلية وهي مما يحتاج إليه المتكلم في إقامة حجته كما ذكر الحاجظ "البصر بالحجّة ، والمعرفة بمواضع الفرصة" [٤] .

وبذلك تبيّن أن مفهوم الحجة كان حاضرًا في التراث البلاغي " وقد دعتهم رغبتهم في إحكامهم لمناظراتهم ومناقشتها أن يبحثوا بحثًا واسعا في بلاغة الكلام ، وكيف يبلغ المتكلم بكلامه الكفاية وغاية الجودة ، بل كيف يروع السامعين ببيانه ، وحلاوة ألفاظه ، وحسن مخارج حروفه ، حتى تسكن القلوب إليه وتثلج الصدور "[٥].

---

(١) كتاب الصناعتين . أبو هلال العسكري . (ص : ١-٢) .

(٢)كتاب الصناعتين . أبو هلال العسكري . (ص : ٤١٦) .

(٣)كتاب الصناعتين. أبو هلال العسكري.(ص: ٦) .

(٤)البيان والتبيين. أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ . (١: ٧٧) .

(٥)الفن ومذاهبه في النثر العربي . شوقي ضيف . (ص: ١٣١) .

المبحث الأول
التفكير البلاغي عند ابن سنان ومصادر الحجة

المطلب الأول: التفكير البلاغي عند ابن سنان

يعد كتاب سر الفصاحة الشاهد الأعلى على عقل ابن سنان الخفاجي ، ففيه معالجة لمسائل بلاغيّة ونقديّة تكشف عن وضوح منهجه ، وعمق تفكيره ، فكان بلاغيًّا في محاورة المسائل ، وبليغًا في صياغتها وعرضها .

وكان عرضه للمسائل البلاغيّة والنقديّة يقوم على أسلوب الحجاج الجدلي الذي يعتمد على تبادل الحجج والأفكار ، وتبادل وجهات النظر المختلفة من أجل الوصول إلى الحقيقة والدفاع عن وجهة نظر معينة . (١)

شرع ابن سنان في تناول المسائل البلاغيّة بالحديث عن فصاحة الكلمة ، وابتدأ في بيان فصاحتها بأصغر وحدة صوتيّة فيها وهو (الحرف) إذ قال : " نحن نذكر قبل الكلام في معنى الفصاحة نبذاً من أحكام الأصوات والتنبيه على حقيقتها ، ثم نذكر تقطعها على وجه يكون حروفاً متميزة ، ونشير إلى طرف من أحوال الحروف في مخارجها ، ثم ندل على أن الكلام ما انتظم منها " (٢) .

فجعل الحديث عن الأصوات وأحكامها مدخلاً للحديث عن فصاحة الكلمة وفصاحة الكلام ، وأبان أن غرضه من ذلك هو التوصل إلى تعريف للكلام ، وبيان أن الكلام في مجمله هو عبارة عن وحدات صوتية انتظمت مع بعضها البعض .

عُني ابن سنان بتفسير الفصاحة وما يُطوى فيها من الصور البيانية والبديعية ، ويَرُدَّ إليها وجوه التفاضل في بلاغة الكلام ، وينوِه بفائدة الوقوف عليها في معرفة نظم الكلام ونقده ، وتبيين خصائصه الجيدة والردئية ، ويستعين بها في معرفة بلاغة القرآن (٣) .

ويرى أن الفصاحة كما تتحقق في اللفظ المفرد تكون أيضاً في الكلام المؤلف ، فهو ينظر إلى الكلام بصورة متكاملة في حالة إفراده وتأليفه ، ويشير إلى أنّه مهما قيل في شأن فصاحة اللفظ المفرد فإن صورتها ناقصة إذا لم تقترن بفصاحة اللفظ المؤلف في الجملة .(٤)

---

(١) من الحجاج إلى البلاغة الجديدة . د. جميل حمداوي . (ص : ١١) . (بدون طبعة) ، أفريقيا الشرق ٢٠١٤م

(٢) سر الفصاحة . عبد الله بن محمد بن سنان . (ص : ١٤) . (الطبعة الأولى) ، دار الكتب العلمية ١٤٠٢هـ.

(٣) ينظر : البلاغة تطور وتاريخ . شوقي ضيف . (ص : ١٥٢) . (الطبعة الثامنة) ، دار المعارف ١٩٩٢م .

(٤) ينظر : سر الفصاحة . ابن سنان الخفاجي . (ص : ٩٥) .

وتبرز ملامح العقل البلاغي لابن سنان من خلال مناقشته للآمدي في بعض تحليلاته لاستعارات أبي تمام في الموازنة بين الطائيين ، كما ناقش علي الجرجاني في تحليلاته لاستعارات المتنبي ، وأبا بكر الصولي في تحليلاته لاستعارات أبي تمام.

كما ناقش موضع اللفظة من النظم وما يحقق موقعُها من الحسن والقبح ، " من وضع الألفاظ موضعها ألاّ يكون في الكلام تقديم وتأخير ، حتى يؤدي ذلك إلى فساد معناه وإعرابه في بعض المواضع "[١]

ويبرز العقل البلاغيّ لابن سنان من خلال حدثيه عن الفساد الذي يصدر من التأويل الفاسد للمعنى الشعري ، فقال : " ومن طريف التفسير للشعر أن يتأوّل ليقع الفساد فيه ، ولو حمل على ظاهره كان صوابًا صحيحاً ، وما أعرف أعجب من حمل كافة المفسرين قول الفرزدق :

إن الذي سمك السماء بنى لنا

بيتًا دعائمه أعزّ وأطول

على وجهين : أحدهما ، أن يكون أعز وأطول بمعنى عزيزة طويلة . والثاني ، أعز وأطول من بيتك يا جرير . فيتعسفون في التأويل ، ومراد الشاعر أوضح من أن يخفى ، وأشهر من أن يجهل ، وهو أعز وأطول من السماء الذي ذكرها في أول البيت ، وإنما جاء بها لهذا الغرض ، وهذا مبالغة في الشعر معروفة مستعملة ، وليست بالمكروهة ولا الغريبة " [٢].

فهذا النص يدل على أن ابن سنان كان متفحصًا للآراء النقدية التي تفسر المعاني الشعرية ، ولا يأخذها على عوانها وإنما يحللها وينظر إليها نظر الناقد الباحث عن المعنى الذي يقصده الشاعر . كما يظهر من النص أن ابن سنان فسّر ما جاء في عجز البيت الشعري بما جاء في صدره ، فنظره كان منطلقاً من سياق النص ، بينما نظر في التفسيرين الذي يرى أنهما من التعسف كان منطلقهما من اللغة ، والسياق الخارجي .

والناظر في أراء ابن سنان الخفاجي المبثوثة في كتاب الفصاحة يرى أنه يخالف كثيراً من العلماء في مسائل عِدة ، فيخالفهم في تعريف الكلام الذي هو عند النحويين : " اللفظ المفيد فائدة يحسن السكوت عليها " [٣] ، ويرى ابن سنان أن الكلام كل ما تكون من حرفين فصاعدًا دون اشتراط الفائدة منه . [٤]

كما يخالف عبد القاهر الجرجاني في السبب الذي يعود إليه إعجاز القرآن الكريم ، فابن سنان يرجعه إلى الصرفة على ما ذهب إليه النظّام ، والجرجاني

---

(١)سر الفصاحة . ابن سنان الخفاجي . (ص:١١١).

(٢) سر الفصاحة . ابن سنان . (ص: ١١٨) .

(٣) شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك . لبهاء الدين عبد الله بن عقيل الهمداني . (١ : ١٤) ، (الطبعة العشرون) ، دار التراث ١٤٠٠هـ .

(٤) سر الفصاحة . ابن سنان . (ص: ٣٤) .

يعيده إلى النظم. فجاء في سر الفصاحة قوله : " وإذا عُدنا إلى التحقيق وجدنا وجه إعجاز القرآن صَرْف العرب عن معارضته ، بأن سُلبوا العلوم التي بها كانوا يتمكنون من المعارضة في وقت مرامهم ذلك " [1] .

المطلب الثاني: مصادر الحجة عند ابن سنان

كان أبو محمد عبد الله بن سنان الخفاجي، علم من أعلام النقد والبيان في القرن الخامس الهجري وكان أميرًا وشاعرًا . شكلت نشأته مصدرًا من مصادر الحجة إذ نشأ في أسرة تاريخها حافل بالكثير من أعلام الدين واللغة والأدب والسياسة ، وتربى على يد الشاعر الفيلسوف أبي العلاء المعري –الذي كان نموذجا فريدا للأديب العالم الذي جمع ثقافة عصره وتعددت المنابع الرافدة لفلسفته – [2] وتتلمذ عليه في معرة النعمان –وهي قرية قريبة من حلب– فأخذ منه وتأثر به وانتقده [3] ، وقد أهلته هذه النشأة ليكون فيما بعد العالم

(١) سر الفصاحة . ابن سنان . (ص: ١٠٠) .

(٢) ينظر : اتجاهات النقد الأدبي في القرن الخامس الهجري . د. منصور عبد الرحمن . (ص: ٥٤) ، (بدون طبعة) ، مكتبة الانجلو المصرية ١٣٩٧هـ . لقد كان أبو العلاء المعري فليسوفًا نتاج الأحداث الحياتية التي عاشها في ظل فقدان بصره ، وبتأثير الثقافات انفتحت أبوابها على الثقافة العربية مثل قِبل الهند والفرس واليونان . كما أن اطلاعه على كتب الأديان المختلفة – اليهودية ، والنصرانية ، والمجوسية كان مؤثراً في فكره الفلسفي ، إضافة إلى صلته بالتصوف علم الكلام . ينظر: النظرية الخلقية عند أبي العلاء المعري بين الفلسفة والدين . د. سناء خضر. (ص : ٥٣) ، (بدون طبعة) ، دار الوفاء ١٩٩٩م .

(٣)اتجاهات النقد الأدبي في القرن الخامس الهجري . د. منصور عبد الرحمن . (ص: ٥٤) .

الكبير ، والشاعر البليغ ، والمؤلف العظيم.[١]

وكانت ثقافته مصدراً للحجة فهو أديب ملم بالأدب ، ومتذوق له ، وملم بالعقائد ، والفلسفات ، والمذاهب العقلية والدينية كما يتجلى ذلك في كتابه سر الفصاحة وفي كثير من شعره ، إذ كان شعره يمتاز بامتلائه بالمعاني والأفكار العقلية.[٢]

كما تأثر بالأعلام السابقين له كالجاحظ الذي احتذى حذوه في كثير من الآراء البيانية والأدبية التي تضمنها الكتاب، كما اعتمد على مقدمة الشعر والشعراء لابن قتيبة اعتماداً كبيراً ، وقد وضع ابن سنان الخفاجي نقد الشعر لقدامة بن جعفر موضع العناية إذ سار على نهجه واحتذى حذوه في كثير من الآراء ، كما اعتمد على كتاب نقد النثر في بعض فصول الكتاب وخاصة عند حديثه عن مقامات الإيجاز والإطناب ، وركن إلى بعض الآراء النقدية في كتاب الوساطة بين المتنبي وخصومه ونقل الكثير من مباحث الاستعارة ، وأخذ من كتاب إعجاز القرآن مباحث السجع والفواصل . [٣] " فكان كتابه خلاصة مركزة لكثير من وجوه النظر في العربية وأصولها ، وفقه لغتها ، ودراسة منظمة لعناصر الجمال الأدبي ، مع آراء شديدة في النقد والبلاغة ، وفنون الأدب ، تدل على تبحر وسعة اطلاع ورأي منظم وعمق في التفكير الأدبي " . [٤]

ولم يكن ابن سنان ناقلاً فقط ، بل كان يعقب على الآراء المنقولة بالقبول أو الرفض من خلال محاورة تدل على عمق تفكيره.

وكان عصره الذي عاش فيه كذلك مصدراً لحججه فكانت الثقافة السائدة آن ذلك تعتمد على إعمال العقل وعلى الجدال ، يُتوصل إلى معرفة ذلك من خلال الاطلاع على ثقافة معاصريه ، إذ عاصر عبد القاهر الجرجاني الذي أثر في منطقه المذهب الأشعري ، وتضلعه في علم العربية ، ودرايته الواسعة بأسرار النحو ووظائفه، وبراعته في علم الكلام ، الذي أمده بجملة من الأدوات التحليلية الإجرائية التي تؤطرها آلية حوارية تداولية ، تستدرج الخصم إلى زاوية الإقرار والتسليم وفق أسلوب الحجاج [٥] . كما كان معاصراً لابن رشيق القيرواني الذي يبدو عليه تأثره

---

(١) بنو خفاجة وتاريخهم السياسي والأدبي . محمد عبد المنعم خفاجي . (٢ : ١٢ – ١٤).

(٢) بنو خفاجة وتاريخهم السياسي والأدبي . محمد عبد المنعم خفاجي . (٢ : ٢٨) .

(٣) يُنظر : بنو خفاجة وتاريخهم السياسي والأدبي . محمد عبد المنعم خفاجي . (٢ :٤٠-٤١) .

(٤)يُنظر : اتجاهات النقد الأدبي في القرن الخامس الهجري . د. منصور عبد الرحمن . (ص: ٧٤-٧٥) .

(٥) يُنظر: الحجاج في دلائل الإعجاز لعبد القاهر الجرجاني . د. عبد القادر حمراني . (ص :٢١٣) ، جامعة حسيبة بوعلي بالشلف، (بحث منشور) .

بمنطـق أرسـطو ، فـذكر فـي كتابـه العمـدة : " وقـال أصـحاب المنطـق حـد الإنسـان : الحـي النـاطق ؛ فمـن كـان فـي المنطـق أعلـى رتبـة كـان بالإنسـانية أولـى " [١] ونقـل عـن أرسـطوطاليس تعريـف البلاغـة فقـال : " قيـل لأرسـطوطاليس : مـا البلاغـة ؟ قـال : حسـن الاستعارة " [٢] .

ويظهـر إطـلاع ابـن سـنان علـى الثقافـات الأجنبيـة وتـأثره بهـا ، شـأنه شـأن المعاصـرين لـه مثـل ابـن رشـيق القيروانـي ، إذ قـال : " قـد ثبـت أن الفـرق الواضـح بـين الحيـوان النـاطق والصـامت هـو النطـق ، وبـه وقـع التمييـز فـي الحـد المنسـوي إلـى الحكـيم"[٣] ويقصـد بـالحكيم أرسـطو الـذي ميز الإنسان عن الحيوان بالنطق .

كمـا ذكـر ابـن سـنان مـا يشـير إلـى إطلاعـه علـى مـا كتبـه الآمـدي والحـاجظ عنـد حديثـه عمّـن يـدعي معرفـة الفصـاحة وهـو أشـد النـاس جهـلاً بهـا فقـال : " وأقـول قبـل كلامـي فـي الفصـاحة وبيانهـا إننـي لـم أرَ أقـل مـن العـارفين بهـذه الصـناعة ، والمطبـوعين علـى فهمهـا ونقـدها ، مـع كثـرة مـن يـدعي ذلـك ويتحلـى بـه ، وينتسـب إلـى أهلـه ، ويمـاري أصـحابه فـي المجـالس ، ويجـاري أربابـه فـي المحافـل ، وقـد كنـت أظـن أن هـذا الشـيء مقصـور علـى زماننـا ، ومعـروف فـي بلادنـا هـذه ، حتـى وجـدت هـذا الـداء قـد أعيـا أبـا القاسـم الحسـن ابـن بشـر الآمـدي ، وأبـا عثمـان بـن بحـر الجـاحظ قبلـه ، وأشـكاهما حتى ذاكره في كتبهما " [٤] .

وممـا تقـدم يمكـن القـول إن مصـادر الحجـة عنـد ابـن سـنان تـتلخص فـي : نشـأته وحياتـه إذ تربـي فـي أسـرة علـم ، وتعلمـه علـى يـد أبـي العـلاء المعـري ، وثقافتـه المكونـة مـن الاطـلاع علـى كتـب السـابقين لـه مـن علمـاء البيـان فـي القـرن الثالـث والرابـع الهجـري ، وعلمـاء النقـد والبيـان فـي المعاصـرين لـه فـي القـرن الخـامس الهجـري ، والاطلاع على الثقافات الأجنبية .

(١)العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده. ابن رشيق القيرواني. (١ : ٢٤٢) .

(٢)العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده. ابن رشيق القيرواني. (١ : ٢٤٥) .

(٣) سر الفصاحة . ابن سنان الخفاجي .(ص : ٦٠).

(٤)سر الفصاحة . ابن سنان الخفاجي . (ص :٦٣).

المبحث الثاني
أنماط الحجة عند ابن سنان

المطلب الأول : الحجة البرهانية

الحجة البرهانية : هي اليقين ، وهي الحجة القطعية الصحيحة الثابتة ، وتتألف من مقدمات يقينية على هيئة تفيد نتائج يقينية ، واليقين في النتيجة يكون مساوياً لليقين في المقدمات . والصحة في الدليل يأتي من كونه قطعيا صحيحًا . وأدوات الاستدلال المستعملة فيها الاستدلال المباشر أو القياس الصحيح المسوغ وفق أحد الأشكال المنتجة لليقين . (١)

من الحجج البرهانية في كتاب سر الفصاحة ما جاء في حديث ابن سنان عن قضية القديم والمحدث ، حيث لجأ إلى إبطال القول بتقديم الشعراء لتقدم زمانهم ، وتأخيرهم لتأخر زمانهم بإثارة الأسئلة حول الأسباب الدافعة لتقديم امرأ القيس وجعله في الطبقة الأولى ، والأسباب التي جعلت النقاد يقدِّمون معه في ذات الطبقة شعراءَ آخرين مع بُعْد الزمن بينهم . ومما أثاره حول هذه القضية من أسئلة قوله : " خبرنا عنك لو أنك في زمان امرئ القيس ووقفت على شعره ، أكان رأيك فيه هو رأيك اليوم ؟ فإن قال : نعم ، قيل له : ولِمَ ؟ وأنت إنما تختاره اليوم وتفضله بقدمه ، فإن كان ذلك الوقت محدثاً عندك فحكمه حكم المحدث اليوم " (٢) .

فبدأ الحوار مع المخالِف له في الرأي بأن جعله معاصِراً لامرئ القيس ليجعله مقدمِّة يقيس عليها حكم الشعراء المحدثين وهم معاصرون للمخالِف ؛ لينفي حكم التفضيل المبني على العامل الزمني ، فكل قديم هو في عصره مُحْدَث ، وليشغل الذهن بالبحث عن السبب الأصوب في مسألة التقديم .

ثم انتقل لمعالجة رأي آخر في قضية القديم والمحدث ، وهو تفضيل المتقدمين لسبقهم إلى المعاني المبتكرة ، فقال : " وأما مَنْ ذهب إلى تفضيل أشعار المتقدمين من حيث سبقوا إلى المعاني والألفاظ ، ونزل الناس بعد على سُكناتهم فإنه يقال له: هذا لو ثبت لدلّ على فضل المتقدمين على المحدثين ، ولم يدل على فضل شعر هؤلاء على هؤلاء ؛ لأنه ليس كل من كان أفضل وجب أن يكون شعره أحسن ، وهذا الخليل هو الغاية في الذكاء والفطنة بعلوم العرب وشعره في أنزل طبقة، وكذلك غيره من العلماء بهذه اللغة ، والأمر في هذا واضح لا يحتاج إلى دليل"(٣) .

---

(١) ينظر : ضوابط المعرفة . حبنكة الميداني . (ص : ٣٠٢) ، (الطبعة الرابعة)، دار القلم ١٤١٤ هـ ، و الإقناع والتأثير دراسة تأصيلية دعوية . إبراهيم صالح الحميدان . مجلة جامعة الإمام محمد بن سعود ، العدد (٤٩) ٢٠٠٥ م .

(٢)سر الفصاحة . ابن سنان . (ص : ٢٨١) .

(٣)سر الفصاحة . ابن سنان . (ص : ٢٨١) .

فقاس السبق إلى المعاني المبتكرة على سبق وتميز العلماء في فروع العلوم المختلفة ، فلم يكن سبقهم دليلٌ على جودة شعرهم ، كما أن ابتكار وسبق الخليل بن أحمد الفراهيدي في علم العروض لم يكن مؤهلاً له في إجادته لنظم الشعر حيث كان شعره في أخفض درجات الجودة .

ومكمن الحجة البرهانية هنا أنه جاء بحقيقة لا تخفى على ذي علم وعقل حيث جعل شعر العلماء عامة وخص منهم الخليل مقدمة يقينية قاس عليها ما ذهب إليه من أن ابتكار المعاني والسبق إليها ليس دليلا على جودة الشعر وبالتالي ليس مدار قضية تفضيل الشعراء المتقدمين على المحدثين.

ومن الحجج البرهانية ما جاء في سياق الحديث عن شرط من شروط فصاحة الكلام حيث قال : " ومن شروط الفصاحة والبلاغة : الإيجاز ، والاختصار، وحذف فضول الكلام ، حتى يعبر عن المعاني الكثيرة بالألفاظ القليلة ، وهذا الباب من أشهر دلائل الفصاحة ، وبلاغة الكلام عند أكثر الناس ، حتى إنهم يحسنون من كتاب الله تعالى ما كان بهذه الصفة " (١)

وهنا تتجلى الحجة البرهانية إذ استند في تقوية رأيه إلى أن الفصاحة تستلزم الإيجاز والاختصار وترك فضول الكلام مع تأدية المعنى بصورة صحيحة لا تخل بتمام دلالة المتكلم ، باستحسان العرب لما جاء في القرآن من إيجاز . فقاس ما كان صفة جمال واستحسان في القرآن الذي اعترف عتاة الكافرين بفصاحته وبلاغته على ما يُشترط أن يتوافر في كلام الناس ليكون فصيحًا .

(١) سر الفصاحة . ابن سنان . (ص : ٢٠٥) .

المطلب الثاني : الحجة الجدلية

الحجة الجدلية هي : الحجة المكونة من مقدمات مشهورة ، يعتقد المتلقي مضمونها اعتقاداً مقارباً لليقين ، ولا يشعر ذهنه أن نقضيه ممكن . وهي الحجة التي تستند إلى مقدمات يُسلِّم به المخاطَب ولا ترتقي عنده لدرجة اليقين . وتعتمد على طرق الاستدلال المباشر وغير المباشر. (١)

ومن نماذج الحجة الجدلية ما يمكن استجلاؤه من مناقشة ابن سنان للآراء النقدية المختلفة تجاه قضية القديم والمحدث ، حيث قدّم رواة الشعر واللغويون أشعار العرب المتقدمين على أشعار المحدثين ، واختلفوا النقاد في علة هذا التقديم ، وبدأ في تفصيل المسألة الدائرة حول العلة الكامنة خلف تفضيلهم ، إذ قال : " أما مَنْ ذهب إلى تفضيل المتقدم بمجرد تقدم زمانه فإنه لم يذهب في ذلك إلى علة غير مجرد الدعوى " (٢) .

فقد استعمل أسلوب الإلجاء (٣) في إبطال رأي مَنْ ذهب إلى تفضيل الشعر نظراً للعامل الزمني في القدم والحداثة ، إذ قال : " فإنه لم يذهب في ذلك إلى علة غير مجرد الدعوى " فبين أن هذه الدعوى لا تستند إلى دليل صحيح مقنع ، فأبدى اعتراضه على هذا الرأي ليبني عليه الأدلة التي يُلجِئ بها مَنْ يخالفه الرأي إلى تصحيح رأيه ، والاقتناع بالرأي المخالف . وهو أسلوب في الحجاج يتلاءم مع الحجة الجدلية التي يقوم فيها المحتج بتقديم أدلة ليغيّر قناعة المخاطَب الذي يعتقد الصواب في غيرها ، فيسلم بصحة الرأي المخالف .

ثم قال : " ما عندك في امرئ القيس ؟ أهو عندك في الطبقة الأولى من الشعراء ؟ فإن قال : هو في الطبقة الأولى ، قيل له : ولِمَ وقد كان قبله جماعة من الشعراء معروفين ؟ أحدهم ابن حذام الذي قيل : إنه أول من بكى على الديار ، وذكره امرؤ القيس في شعره ، فقال :

عرّجا على الطلل المحيل لعلنا

نبكي الديار كما بكى ابن حذام "(٤) .

وهنا تكمن الحجة الجدلية التي أوردها ابن سنان على أسلوب الاستفهام ، فهو يطرح السؤال ، ويجيب عليه في آنٍ معاً ، فهو السائل وهو المجيب . فيحاور عقلُه الدعوى التي ألقاها الخصم ، ويجيب عليها .

وللوظيفة البلاغية – التي يؤديها الاستفهام من تنبيه العقل ، وتشويقه

---

(١) ينظر : ضوابط المعرفية . حبنكة الميداني . (ص: ٣٠٣) .

(٢) سر الفصاحة . ابن سنان . (ص : ٢٧٩).

(٣) الإلجاء هو أسلوب من أساليب الاحتجاج العقلي ، مبنيٌّ على مقدمة عقلية من كلام المخاطَب ، وعرفته د. زينب كردي بأنه : " اعتراض على كلام فاسد من قبل المستدل ، يورد ليُبنى عليه ما يُلجئه إلى تصحيح الجواب . ". بلاغة الاحتجاج العقلي في القرآن الكريم . د. زينب كردي . (ص: ١٤٤) ، مكتبة الرشد ١٤٣٥هـ (بدون طبعة) .

(٤)سر الفصاحة . ابن سنان . (ص : ٢٧٩) .

لمعرفة الإجابة– دورٌ في التفات الخصم لرأيه والتفكير بمدى صحته أو خطئه ، وبالتالي تحقيق الاقتناع برأي المحتج . فقيمة الاستفهام في الموقف الحجاجي تكمن في أنه يولد نقاشا ، إذ أن الأسئلة في الخطاب وسيلة لإثارة الخصم ، ودفعه إلى إعلان موقفه ، أو مراجعة نفسه إزاء قضية معينة ، يحددها المحتج ، تثير إشكالاً وتوجه المتلقي إلى وجهة محددة.(١)

فابن سنان يحتج على من يفضل الشعراء بناءً على تقدم زمانهم ، بسؤالهم لِمَ كان امرؤ القيس في الطبقة الأولى ؟ فهل هو مقدم عندكم لأجل تقدم زمانه ؟

فإذا قدم النقاد امرؤ القيس لأجل العامل الزمني فقط ، فلماذا لم يقدموا ابن الحذام الذي تقدم زمنه على امرؤ القيس ، وقد استشهد امرؤ القيس بشعره ؟

أراد ابن سنان من طرح هذه الأسئلة بيان أن العامل الزمني ليس علة التقديم ، وإنما للتقديم علة أخرى يجب أن تعرف ، والدليل على ذلك أن ابن حذام قد تقدم على امرؤ القيس وله السبق في البكاء على الديار ، وهذا التقدم الزمني والسبق إلى ابتكار المعاني كالبكاء على الديار الذي اشتهر به لم يشفعا له ليكون في الطبقة الأولى عند الرواة واللغوين . " وإذا كان زمان امرئ القيس قد تأخر عن زمان جماعة من الشعراء فيجب تفضيلهم عليه ؛ لأنك قلت إنما يُفضّل بتقديم الزمان فقط".(٢)

فعمد إلى نقض رأيهم إلى طريقين ، الأول : قياس القول بتفضيل المتقدمين لأجل تقدم زمانهم على القول بتقديم المتأخرين لتأخر زمانهم ، إذ قال : " فلو قال له قائل شعر المحدثين أفضل لتأخر زمانهم لم يكن بين القولين فرق " (٣) وهذا القياس لا يشعر ذهن الخصم ابتداءً أنه ممكن ، وبذلك تظهر الحجة الجدلية . والثاني : استقراء أشعار العرب ، حيث استدل بشعر امرئ القيس – وهو المقدم لديهم – على تقدم ابن حذام عليه في الزمن وله السبق في غرض البكاء على الديار .

وتظهر الحجة الجدلية من حديث ابن سنان عن شرط الإيجاز والاختصار الذي يتحقق به فصاحة الكلام ، ومن خلال نقاشه للرأي الذي يقول : إن إطالة الكلام في بعض المقامات يكون فصيحًا ، كما أن الإيجاز والاختصار في مقامات أُخر يحقق الفصاحة فقال : " ومن الناس من يقول : إن من الكلام ما يحسن فيه الاختصار والإيجاز ، كأكثر المكاتبات والمخاطبات والأشعار ، ومنه ما يحسن

(١) يُنظر : الحجاج في الشعر العربي القديم . سامية الدريدي. (ص : ١٤١ – ١٤٥) . عالم الكتب الحديث ، الطبعة الأولى ١٤٢٠ هـ .

(٢) سر الفصاحة . ابن سنان . (ص : ٢٧٩) .

(٣) سر الفصاحة . ابن سنان . (ص : ٢٧٩) .

فيه الإسهاب والإطالة ، كالخطب والكتب التي يحتاج أن يفهمها عوام الناس وأصحاب الأذهان البعيدة ، فإن الألفاظ إذا طالت فيها وترددت في إيضاح المعنى أثر ذلك عندهم فيه ، ولو اقتصر بهم على وحي الألفاظ وموجز الكلام لم يقع لأكثرهم حتى يقال في ذكر السيف : الحسام القاطع، الجراز الباتر. وفي وصف الشجاع : البطل الفاتك ، النجد الباسل . وما يجري هذا المجرى . قالوا : وربما كان ذلك الكتاب بالفتح أو الخطبة تقرأ في موقف حافل ، يكثر فيه لغط الناس وصخبهم ، فيحتاج إلى تكرار الألفاظ ؛ ليكون ما يفوت سماعه قد استدرك ما هو في معناه" [١] .

فالنص يدل على اهتمام مَنْ قال بحصول وصف الفصاحة للكلام مع إطالته ، وليست الفصاحة صفة واقعة على الموجز المختصر من الكلام ، ومرجعُ هذا الرأي النظرُ إلى المقامات التي يحسن فيها الإطالة لتفاوت درجات الفهم والاستيعاب عند المتلقين ، مما يدل على أن العرب كانت تضع المتلقي نصب الاهتمام ، وتزن له من الكلام ما يوافق أفهامهم ، وتراعي الفروق المعرفية والتحصيلية . لكن ابن سنان يعارض هذا الرأي ويحصر الفصاحة في الموجز من الكلام ، وعالج هذه المسألة من عدة زوايا :

أولاً: ما كان من باب التكرار .

فهو يرى أن المعاني التي تكرر في أنماط تعبيرية متغايرة هي من باب التكرار الذي لا يحقق زيادة في المعنى ، ولا يؤثّر في الكلام حُسناً ولا قبحاً ، ويخرج ما كان من المعاني الواحدة المحمولة على وجوه مختلفة من التعبير من أصل مسألة الفصاحة التي يدير حديثه عن الإيجاز عليها ، فيقول : "والذي عندي في هذا الباب أنهم إن كانوا يريدون بالإطالة تكرر المعاني والألفاظ الدالة عليها وخروجها في معاريض مختلفة ووجوه متباينة – وإن كان الغرض في الأصل واحداً – فليس ما نحن بسبيله ؛ لأنه بمنزلة إعادة كلام واحداً مراراً عدة ، فإن تلك الإعادة لا تؤثر فيه حسنًا ولا قبحًا"[٢] .

ثانيًا : التعبير بالألفاظ الطويلة .

حيث قال: "وإن كانوا يريدون أن المعنى الذي يمكن أن نعبر عنه بألفاظ يسيرة موجزة قد يحسن أن يُعبَر عنه بألفاظ طويلة ؛ ليكون ذلك داعيًا إلى فهم العاميّ والبليد له ، وتكون الإطالة في هذا الموضع خاصة أصح وأحمد ، كما أن الوحي والإشارة في موضعهما أوفق وأحسن ، فإنا لا نسلم ذلك لأنا نذهب إلى أن المحمود من الكلام ما دل لفظه على معناه دلالة ظاهرة ولم يكن خافيًا مستغلقاً " [٣] .

(١)سر الفصاحة . ابن سنان . (ص : ٢٠٦) .

(٢) سر الفصاحة . ابن سنان . (ص : ٢٠٦) .

(٣) سر الفصاحة . ابن سنان . (ص : ٢٠٦) .

ثالثًا : ظهور وخفاء دلالة الكلام .

حيث قال : " فإن كان الكلام الموجز لا يدل على معناه دلالة ظاهرة إلاّ أنها تخفى على البليد ، والبعيد الذهن ومن لا يسبق خاطره إلى تصور المعنى ، ولو كان الكلام طويلاً لجاز أن يقع لهم الفهم ، فليس هذا عندنا بموجب أن يكون الإسهاب في موضع من المواضع أفضل من الإيجاز " [1] .

ثم استند في بيان حجته الجدلية إلى التمثيل في تعضيد رأيه الذي يذهب فيه إلى أن إطالة الكلام في بعض المقامات لا يستلزم تفضيله على الإيجاز مطلقاً ، مُعارِضٌ بذلك رأي من يقول : إن الإسهاب والإيجاز هما متطلبان يفرضهما المقام ودرجات المخاطبين وما يقتضيه الإيجاز من خفاء ولطف المعنى ، وما يقتضيه الإسهاب من وضوح ، إذ قال : "كما أن النقوش الغليظة في كثير من الصناعات لا تكون أحسن من النقوش الدقيقة ؛ لأن تلك يدركها الضعيف من البصر ويتعذر عليه إدراك هذه ، ولو اعتبرنا هذا الكلام وفهم البليد له لا عتبرنا ذلك في النقوش إدراك ضعيف البصر لها، وهذا فاسد " [2] .

فالنقوش لا تتفاضل من حيث هي دقيقة وغليظة ، وبذلك لا تفاضل بين الكلام من حيث كون موجز ومُسهب ، وإن صحّ إدراك ضعيف البصر لدقيق النقوش صحةَ إدراكه لغليظها ، صحّ بذلك مساواة فهم المتلقي للكلام الموجز والمُسهَب ؛ وذلك لأن ابن سنان يذهب إلى أن الكلام المحمود هو ما دلّ لفظه على معناه دلالة ظاهرة ولم يكن خافيًا مستغلقاً ، فالضابط في فصاحة الكلام لا يعود إلى الأسلوب الذي يحمل الكلام سواء كان المتكلم موجِز أو مطنِب ، وإنما يعود إلى ظهور وجلاء الدلالة .

ونقض ابن سنان رأي مَنْ ذهب إلى أن بعض المقامات يحتاج فيها المتكلم إلى التطويل وترك الإيجاز ليُبلّغ معناه ، ويفهمه سامعه ، ويكون في ذلك محقق لشرط فصاحة الكلام ، ومثال ذلك خطاب العامة الذي يحتاج فيه الإطناب ، باستعمال أسلوب التقابل حيث استدل على عزم القائل بعدم فهم العامة للكلام الفصيح الموجز ، بما يقابله وهو فهمهم للكلام المبتذل .

فمقام خطاب العامة إذا كان يستلزم الإطناب والتطويل لأجل إفهامهم ، فإن الطريق الأيسر لذلك ترك الألفاظ الفصيحة التي لم يألفوها ، وإن إفهامهم يكون أوفق إذا تم خطابهم بألفاظ معجمهم وما اعتادوا استعماله وسماعه في كلامهم .

---

(١)سر الفصاحة . ابن سنان . (ص : ٢٠٦) .

(٢) سر الفصاحة . ابن سنان . (ص : ٢٠٦ – ٢٠٧) .

فقال : " ويلزم من ذهب إلى اختيار العبارة عن المعنى بالألفاظ الكثيرة من حيث كان ذلك سببًا لفهم عوام الناس ومن لا يسبق ذهنه إلى تصور المعنى أن يختار الألفاظ العامية المبتذلة على الألفاظ الفصيحة التي لم تكثر استعمالها العامة ولا ابتذلوها ؛ لأن علته في اختيار الطويل لأجل فهمهم ، له قائمة في الألفاظ المبتذلة ، ولا خلاف أنهم إلى فهمها أقرب من فهم ما يقل ابتذالهم له ، وهذا مما لا يذهب إليه أحد ، ولا التزمه ملتزم " (١) .

فأقام حجته على نقيض رأيهم ، ولم يكن خصمه في هذه المسألة يُسلم بحصول هذا النقيض ، وهذه هي الحجة الجدلية التي لا يشعر ذهن المتلقي لأول مرة بأن نقيضه ممكن الحصول(٢) .

المطلب الثالث : الحجة الخطابية

الحجة الخطابية : هي ما تفيد ظنًا راجحًا مقبولا ، ولا تلزم المخاطَب بالأخذ بها ، وتعتمد على مقدمات ظنية سواء سلّم بها المخاطب أو لم يسلم بها . لكنها تشكل للمستدِّل يقينًا راجحا . وتقوم على الاستدلال المباشر وغير المباشر . (٣)

ومن الحجج الخطابية في كتاب سر الفصاحة ما جاء عند حديثه عن تقسيم النحويين للكلام ، فيقول : "وليس يجوز أن يشترط في حد الكلام كونه مفيد على ما يذهب أهل النحو " (٤). هذا ما ذهب إليه ابن سنان من عدم جواز اشتراط الإفادة في حد الكلام ، فمخالفته ما عليه النحويين يتطلب أن يقدم ما يعضد رأيه من أدلة وحجج ، فقال : " وذلك أنا وجدنا أهل اللغة قسموا الكلام إلى مهمل ومستعمل ، والمهمل ما لم يوضع في اللغة – التي أضيف أنه مهمل إليها – لشيء من المعاني والفوائد ، والمستعمل هو الموضوع لمعنى أو فائدة ، فلو كان الكلام هو المفيد عندهم ، وما لم يفد ليس بكلام لم يكونوا قسموه إلى قسمين ، بل كان يجب أن يسلبوا ما لم يفد اسم الكلام رأساً ، لا أن يجعلوه أحد قسميه " (٥) .

---

(١) سر الفصاحة . ابن سنان . (ص : ٢٠٧) .

(٢) ضوابط المعرفة . حبنكة الميداني .(ص: ٣٠٣).

(٣) يُنظر : ضوابط المعرفة .حبنكة الميداني . (ص: ٣٠٤) .

(٤) سر الفصاحة . ابن سنان . (ص : ٣٤) .

(٥)سر الفصاحة . ابن سنان . (ص : ٣٤) .

فـاحتج علـى مسـألة عـدم جـواز تقييـد الكـلام بالمفيـد بتقسـيم الكـلام فـي اللغـة إلـى مهمـل ومسـتعمل ، والمهمـل : مـا لـيس موجـود فـي اللغـة ، فـإذا كـان مـا لـم يكـون موجـود فـي اللغـة أُعتبـر كـلام وأضـيف إليهـا ، فكيف يخرج من حد الكلام ما كان كلامًا في أصله لكنه لم يأتِ بفائدة ؟

فنظره فـي هـذه المسـألة كـان معتمداً علـى الاسـتدلال غيـر المباشـر حيـث قـاس فعـل النحـاة بفعـل أهـل اللغـة ، وقـاس المفيـد مـن الكـلام وغيـر المفيـد ، علـى المهمـل والمستعمل .

ثـم تمـم أدلتـه فـي حجتـه بقولـه : " وأي دليـل علـى أن اسـم الكـلام عنـدهم غيـر مقصـود علـى المفيـد أوكـد مـن تسـميتهم للهـذيان الواقـع مـن المجنـون وغيـره كلامـاً " [١] فقـاس تسـميةَ غيـر المفيـد مـن الكـلام كـلامٌ علـى تسـميةِ هـذيان المجنـون كـلامٌ . وبـذلك قـدم للمتلقـي مقدمـة مظنونـة ظنًـا راجحاً ، ولم يلزمه باتباع رأيه .

ومـن الحجـج الخطابيـة فـي كتـاب سـر الفصـاحة مـا جـاء فـي مسـألة جـواز أو منـع إطـلاق مصـطلح حـروف المعـاني . قـال ابـن سـنان فـي عـرض المسـألة : " أمـا تسـمية أهـل العربيـة أدوات المعـاني نحـو (مِـنْ ، وقَدْ) حروفـا فـإنهم زعمـوا أنهـم سـموها بـذلك؛ لأنهـا تـأتي فـي أول الكـلام وآخـره ، فصـارت كـالحروف والحـدود لـه ، وقـد قـال بعضـهم : إنمـا سـميت حروفـاً لانحرافهـا عـن الأسـماء والأفعال " [٢] .

فتقديمـه للمصـطلح الـذي يـراه مناسـبًا وهـو (أدوات المعـاني) فـي بدايـة صـياغة المسـألة وعرضـها دلّ علـى أنـه يخـالفهم فـي الـرأي ، وأن الكـلام مسـوقاً لعـرض رأي المخـالِفين لـه فـي التسـمية ودلـيلهم ، ثـم عـرض رأيـه ودليلـه فقـال : " وهـي عنـدنا نحـن كـلام ، لأنهـا منتظمـه مـن حـرفين فصـاعداً " [٣] . فيـذهب ابـن سـنان إلـى أن الكـلام مـا تكـون مـن حـرفين وأكثـر ، ولا يشـترط حصـول الفائـدة بـه ، مستندًا فـي بيـان رأيـه إلـى الظـن الـراجح عنـده ، ومـا يعتقـد صـوابه ، ولـم يلـزم بـه المخـاطبين . وقـد ذكـر فـي موضـع آخـر مـن كتابـه " أن الكـلام هـو الصـوت الواقـع علـى بعـض الوجـوه " [٤] وهـو بـذلك يخـالف مـا عليـه النحـويين مـن اشـتراط الفائـدة ، وبـذلك يمكـن القـول إن ابـن سـنان يـذهب إلـى أن الكـلام كـل ملفـوظ مكـون مـن حـرفين وصـاعداً ، ولا يشـترط فيـه الفائـدة ، والكلمـة المكونـة مـن حـرفين يصـح إطـلاق لفظ الكلام عليها .

---

(١) سر الفصاحة . ابن سنان . (ص : ٣٤) .

(٢)سر الفصاحة . ابن سنان الخفاجي . (ص : ٢٤).

(٣)سر الفصاحة . ابن سنان . (ص : ٢٤) .

(٤) سر الفصاحة . ابن سنان . (ص :٣٩) .

المطلب الرابع : الحجة الشعرية

الحجة الشعرية هي : ما يعتمد فيها المخاطِب على التلاعب بمشاعر وعواطف المتلقي، فيتأثر بها ويستجيب لمضمونها وقد يكون عالماً بعدم صحتها . وهي لا تفيد يقينًا ، ولا ظنًا راجحاً وإنما تعتمد على التأثير النفسي للمتلقي . [١] وللنفس البشرية قوتان : قوة العقل الذي تحتاج إلى قوة التفكير ليتحقق التأثير فالإقناع ، وقوة وجدان التي تحتاج إلى تحريك العاطفة ليحصل التأثير فالإقناع . [٢]

وجاءت الحجة الشعرية في كتاب سر الفصاحة عند حديث ابن سنان في مسألة تفضيل النثر على الشعر ، فقال : " وأما الذي نقوله في تفضيل النثر على النظم فهو أن النثر يُعلم فيه أمور لا تعلم في النظم كالمعرفة بالمخاطبات وبنية الكتب والعهود والتقليدات ، وأمور تقع بين الرؤساء والملوك يعرف بها الكاتب أمورهم ويطلع على خفيّ أسرارهم ، وأن الحاجة إلى صناعة الكتابة ماسة ، والانتفاع بها في الأغراض ظاهر " [٣] .

يتضح اعتماد ابن سنان في بيان السبب الدافع إلى تفضيل النثر إلى ما يحصل للكاتب من معرفة وإطلاع على أمور الرؤساء والملوك ويطلع على خفي أسرارهم ، والنفس مجبولة على معرفة ما يُخفى عنها ، فأثار بقوله (خفي أسرارهم) العقول للتفكير في ماهيتها ، وهنا مكمن الحجة الشعرية . واستمر في استعمال الحجة الشعرية بتزهيد النفوس في فن الشعر فقال: " والشعر فضل يستغنى عنه، ولا تقود ضرورة إليه، وأن منزلة الشاعر إذا زادت وتسامت لم ينل منها قدراً عاليا"[٤].

ثم بدأ يوازن بين منزلة الشاعر والكاتب فقال : " وأن منزلة الشاعر إذا زادت وتسامت لم ينل منها قدراً عالياً ، ولا ذكراً جميلاً ، والكاتب ينال بالكتابة الوزارة فما دونها من رتب الرياسة ، وصناعة تبلغ بها إلى الدرجة الرفيعة أشرف من صناعة لا توصل صاحبها إلى ذلك " [٥] فالحجة الشاعرية ظاهرة من خلال مفاضلته بين منزلة الشاعر والكاتب ، فالكتابة تبلغ صاحبها إلى بلاط الحكم ، وتزلفه من الرؤساء ، وتقود صاحبها للترقي في مناصب الحكم حتى يبلغ الوزارة . وكلامه ينزع منزع الترغيب في الكتابة ، ويحرك في النفوس دوافع الإقبال عليها .

وبعد أن بيّن المنزلة التي يبلغها الكاتب في الدولة دون الشاعر عاد إلى التزهيد في الشعر ناظراً إلى موضوعاته ومعانيه بقوله : " وإن أكثر النظم إذا كُشف وجد لا يعبر عن جد ، ولا يترجم عن حق،

(١) ضوابط المعرفة . حبنكة الميداني . (ص:٣٠٦).
(٢) النبأ العظيم. د. محمد عبد الله درّاز. (ص : ١١٣) ، مكتبة الفنون والآداب – القاهرة. (د.ط) . (د ت) .
(٣) سر الفصاحة . ابن سنان . (ص : ٢٨٨) .
(٤) سر الفصاحة . ابن سنان . (ص : ٢٨٨) .
(٥)سر الفصاحة . ابن سنان . (ص : ٢٨٨) .

وإنما الحذق فيه الإفراط في الكذب ، والغلو في المبالغة " [١] فالشعر عنده هزل ومغالطة ، والبارع فيه إنما يبرع في الكذب ، فاستند هنا في إقامة حجته الشعرية على الجانب الأخلاقي لينفّر من الشعر. ولا يخفى تأثير الجمل القصيرة التي أوردها ، وما حقق الجناس الناقص في قوله : (وجد لا يعبر عن جد) في تأثير على المتلقي في جذب سمعه ثم استمالة قلبه .

وفي مقابل ذلك شرع في تعديد محاسن النثر من زوايا الموضوعات ، فقال : " وأكثر النثر شرح أمور متيقنة ، وأحوال مشاهدة ، وما كثر فيه الجد والتحقيق أفضل مما كثُر فيه المحال والتقريب " [٢] .

المطلب الخامس : الحجة الباطلة

الحجة الباطلة : وهي القائمة على خطأ غير مقصود . وقد يكون مرجع الخطأ فيها الاعتماد على القياس غير الصحيح ، أو لخطأ الدليل .[٣]

من هذا النمط الحجاجي في كتاب سر الفصاحة ما جاء في سياق الحديث عن الوجه الثاني من فصاحة الكلام ويرى ابن سنان أنه كائن في تأليف الكلام ، سواء كان ذلك في تأليف حروف اللفظة المفردة ، أم في الكلام المؤلف الذي يطول ويتسع . ثم عرض ابن سنان تقسيم أبي الحسن الرُّماني للكلام المؤلف إلى ثلاثة أقسام ، وهي : تأليف متنافر ، ومتلائم في الطبقة الوسطى ، ومتلائم في الطبقة العليا. ونقضه بقوله : " وهذا الذي ذكره غير صحيح ، والقسمة فيه فاسدة ، وذلك أن التأليف على ضربين : متنافر ، ومتلائم . وقد يقع في المتلائم ما بعضه أشد تلاؤمًا من بعض على حسب ما يقع التأليف عليه ، ولا يحتاج أن يجعل ذلك قسماً ثالثًا ، كما يكون من المتنافر ما بعضه أشد في التنافر وأكثر من بعض ، ولم يجعل الرُّماني ذلك قسماً آخر " [٤] فعلل معارضته لتقسيم الرُّماني بالتفاوت الحاصل درجات التنافر ، وبين درجات

(١)سر الفصاحة . ابن سنان . (ص : ٢٨٨) .
(٢)سر الفصاحة . ابن سنان . (ص : ٢٨٨) .
(٣) ينظر : ضوابط المعرفة . حبنكة الميداني .(٣٠٨)
(٤) سر الفصاحة . ابن سنان الخفاجي . (ص : ٩٩) .

التلاؤم . مستعملاً في إقامة حجته أسلوب الإلجاء فاعتراض على الكلام – الذي يراه فاسداً – من قِبل المستدل ، وبنى عليه ما يُلجئ المستدِل إلى تصحيح جوابه ، وتراجعه عن موقفه .

على أن اعتراض ابن سنان ليس في موضعه ؛ لأن تعبير الرُّماني كان وصفًا للتنافر والتلاؤم على وجه العموم ، ودرجات التنافر والتلاؤم التي اعتراض ابن سنان على عدم وجودها هي مُدرجة ضمنًا في العام ، ويفهما المتفحص تضمنًا . لكن اعتراضه على تقسيم التأليف إلى متنافر ومتلائم كان تمهيدًا لبيان رأيه الذي يعتقد صحته في المساواة بين العالي من كلام البشر ، وبين كلام الله تعالى في درجة الفصاحة والبلاغة ، ثم أورد الحجة الباطلة والكامنة في قوله : " وأما قوله إن القرآن من المتلائم في الطبقة العليا وغيره من الطبقة الوسطى وهو يعني بذلك جميع كلام العرب فليس الأمر على ذلك ، ولا فرق بين القرآن وبين فصيح الكلام المختار في هذه القضية " [١] .

ومرجع الخطأ في حجته يرجع إلى القياس المغلوط إذ قاس الفصيح من كلام البشر على كلام الله الذي تحققت فيه الفصاحة التي أفحمت العرب وقطعت آمالهم في مجاراته . وأسند حجته إلى الذوق والمعرفة بالكلام إذ قال : " ومتى رجع الإنسان إلى نفسه وكان معه أدنى معرفة بالتأليف المختار وجد في كلام العرب ما يضاهي تأليفه ، ولعل أبا الحسن يتخيل أن الإعجاز في القرآن لا يتم إلاّ بمثل هذه الدعوى الفاسدة ، والأمر بحمد الله أظهر من أن يعضده بمثل هذا القول الذي ينفر عنه كل من شدا بالأدب ، أو عرف من نقد الكلام طرفا " . [٢]

ولا شك في أن اعتماد الحجة على ذوق المتلقي يضعف قوتها وحِدّة قطعيتها لاختلاف المتلقين في درجة في الحس الذوقي وفي البصر بالمعرفة .

ويظهر من خطاب ابن سنان استعمال أسلوب الإسجال الحجاجي – الذي بناه على قول الرُّماني – وهو : " إرسال الكلام وإطنابه ، ذمًّا للخصم ، وحكمًا عليه بصفات قبح بلغ منتهاها . " [٣] وتظهر من قوله : " ولعل أبا الحسن يتخيل " ، وقوله : "هذه الدعوى الفاسدة " ، والتعريض بجهل الرُّماني في قوله: " ينفر عنه كل مَنْ شدا بالأدب ، وأعرف من نقد الكلام طرفا " .

ثم بنى على حجته الباطلة – التي يرى فيها أن التساوي بين الفصيح من كلام البشر ، وكلام الله تعالى – وجه الإعجاز الأظهر عنده وهو صرف الله تعالى لطموحات العرب وسلب قدراتهم عن مجاراة القرآن . وما بُني على باطل فهو باطل .

---

(١) سر الفصاحة . ابن سنان . (ص : ٩٩) .

(٢)سر الفصاحة . ابن سنان . (ص : ٩٩ – ١٠٠).

(٣) بلاغة الاحتجاج العقلي في القرآن الكريم . زينب عبد اللطيف كردي . (ص : ١٨٠) .

الخاتمة

الحمـد لله علـى مـا وفـق وهـدى ، والصـلاة والسـلام علـى سـيد الخلـق ، ومَـن اقتفى أثره واهتدى ، وبعد

فـإن كتـاب سـر الفصـاحة مـن المؤلفـات القيمـة التـي لا تقتصـر فائـدتها علـى تقـديم المسـائل العلميـة بـل إنهـا تقـرن تعلـيم العلـم ، بتعلـيم مِنهـاج النظـر فـي العلـم ، مـن خـلال محـاورة آراء العلمـاء ، ومحاجـة آراء الخصـوم . ويعـد ابـن سـنان الخفـاجي مـن البلاغيـين والنقـاد الـذي أثـروا فـي نشـأة علـم البلاغـة فـي القـرن الخـامس الهجـري ، وتبـرز مـن خـلال مناقشـته للمسـائل البلاغيـة طريقتـه الحجاجيـة الجدليـة ، متـأثراً بـذلك بثقافـة عصـره التـي كانـت زاهـرة بأسـاليب المتكلمـين مـن أشـاعرة ومعتزلـة ، ومـن اطلاعـه علـى الثقافـات الأجنبيـة . ومـن خـلال اسـتقراء كتـاب سـر الفصـاحة ، والنظـر المـتفحص فـي مسـائله بحثـاً عـن أنمـاط الحجـة خلـص البحـث إلـى عـدد مـن النتائج ، وهي :

* كتـاب سـر الفصـاحة يشـكل مـادة علميـة زاخـرة بأسـاليب الاحتجـاج العقلـي ، ومـوطن عـامر بأنمـاط الحجـج المتنوعـة ، وآلياته المتعددة .

* إن معالجـة المسـائل البلاغيـة بأسـاليب الاحتجـاج العقلـي يـدل علـى العلاقـة الرابطـة بـين علـم البلاغـة العربـي وبـين الحجـاج بوصـفه طريقـة علميـة فـي تأصـيل العلـوم وتوصـيل الأفكـار وإقنـاع المتلقي بها .

* ظهـر فـي كتـاب سـر الفصـاحة أنمـاط متعـددة مـن الحجـج وهـي : الحجـة البرهانيـة ، والحجـة الجدليـة ، والحجـة الخطابيـة ، والحجـة الشـعرية ، والحجـة الباطلة .

* عمـد ابـن سـنان إلـى عـدد مـن الآليـات الاسـتدلالية التـي أقـام عليهـا حججـه ومنها : القياس ، والتمثيل .

* اعتمـد ابـن سـنان علـى تحريـك العواطـف ، وإثـارة المشـاعر مرغبًـا ومنفـراً وذلـك فـي إقامـة حجتـه الشـعرية عنـد حديثـه عـن مسـألة المفاضـلة بـين الشـعر والنثر .

* جـاءت الحجـة الباطلـة فـي كتـاب سـر الفصـاحة نتيجـة الخطـأ فـي القيـاس ، كمـا ظهـر فـي حـديث ابـن سـنان عـن مسـألة المسـاواة بـين فصـاحة القـرآن الكـريم وفصاحة العرب .

* ظهـر فـي أعطـاف كتـاب سـر الفصـاحة مـا يـدل علـى أن العـرب كانـت تتبـع نمـط تفسـير الـنص بسـياق الـنص بعيـدًا عـن سياقه الخـارجي كمـا فسـر ابـن سـنان بيـت الفـرزدق وعـاب مَـن اعتمـد فـي تأويلـه للبيـت الشـعري علـى اللغـة والسـياق الخـارجي الـذي أبعـد معنـى الشـاعر المقصود .

ومما يوصي به البحث :

* دراسة كتاب سر الفصاحة لابن سنان الخفاجي من منظور حجاجي ، فهو أرض خصبة للنظر والبحث .

* بيان المسائل البلاغية التي تأثر بها ابن سنان ممن سبقه من العلماء ، وما أثر في معاصريه ومن جاء بعده إذا يعد ابن سنان في منتصف طريق التقعيد البلاغي الذي بدأ من الجاحظ واكتمل على يد السكاكي .

والحمد لله من قبل ومن بعد

وصلِّ اللهم وسلّم على سيدنا محمد

قائمة المصادر والمراجع

المصادر :

- سر الفصاحة . عبد الله بن محمد بن سنان . (الطبعة الأولى) . ١٤٠٢هـ دار الكتب العلمية.

المراجع :

- اتجاهات النقد الأدبي في القرن الخامس الهجري . د. منصور عبد الرحمن . (د.ط) . ١٣٩٧هـ . مكتبة الانجلو المصرية .
- الإقناع والتأثير دراسة تأصيلية دعوية . إبراهيم صالح الحميدان . مجلة جامعة الإمام محمد بن سعود . العدد (٤٩) ٢٠٠٥ م .
- بلاغة الاحتجاج العقلي في القرآن الكريم . د. زينب كردي . (د.ط) . ١٤٣٥هـ . مكتبة الرشد.
- البلاغة تطور وتاريخ . شوقي ضيف . (الطبعة الثامنة) . دار المعارف ١٩٩٢م .
- بنو خفاجة وتاريخهم السياسي والأدبي . محمد عبد المنعم خفاجي . (الطبعة الأولى) . ١٣٦٩ هـ. المطبعة الفاروقية الحديثة.
- البيان والتبيين. أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ . تحقيق عبدالسلام محمد هارون . (د.ط) . ٢٠٠٣م . مكتبة الخانجي .
- الحجاج في الشعر العربي القديم . سامية الدريدي . (الطبعة الأولى) . ١٤٢٠ هـ .عالم الكتب الحديث .
- الحجاج في دلائل الإعجاز لعبد القاهر الجرجاني . د. عبد القادر حمراني . جامعة حسيبة بوعلي بالشلف، (بحث منشور) .
- شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك . لبهاء الدين عبد الله بن عقيل الهمداني . (الطبعة العشرون) . دار التراث ١٤٠٠هـ .
- الصناعتين . أبو هلال العسكري . تحقيق : علي محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل إبرهيم . (الطبعة الأولى) . دار إحياء الكتب العربية ١٣٧١هـ .
- العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده. أبو علي الحسن بن رشيق القيرواني. تحقيق : محمد محي الدين عبد الحميد. (الطبعة الخامسة) . دار الجيل ١٤٠١هـ .
- الفن ومذاهبه في النثر العربي . شوقي ضيف . (الطبعة العاشرة) (د.ت) . دار المعارف.
- لسان العرب. ابن منظور. تحقيق : عبد الله الكبير وآخرون . (د.ط) . (د. ت) . دار المعارف
- معجم مقاييس اللغة. أحمد بن فارس. تحقيق: عبد السلام هارون. (د.ط)، (د. ت). دار الفكر
- من الحجاج إلى البلاغة الجديدة . د. جميل حمداوي . (د.ط) أفريقيا الشرق ٢٠١٤م
- النبأ العظيم. د. محمد عبد الله درّاز. (د.ط) . (د ت) . مكتبة الفنون والآداب – القاهرة.
- النظرية الخلقية عند أبي العلاء المعري بين الفلسفة والدين . د. سناء خضر. (د.ط) . ١٩٩٩م . دار الوفاء.
- والمعجم الاشتقاقي المؤصل لألفاظ القرآن الكريم . حسن جبل . (د.ط) ٢٠١٠م. مكتبة الآداب .
- ومعجم مقاييس اللغة . أحمد بن فارس . تحقيق : عبد السلام هارون . (د.ط) ، (د ت) دار الفكر .